الكتاب الحادي والعشرون

«كيف نتعامل مع القرآن»

مدخل: كتبه أ. د. طه جابر العلواني
مقدمة: كتبها الأستاذ عمر عبيد حسنة
تمهيد: كتبه العلامة الشيخ محمد الغزالي
تحليل وعرض أ.د. بكر زكي عوض

أما المدخل: فقد بين فيه كاتبه الأهداف من هذه الدراسة ونص على أن العودة إلى القرآن هي غاية المعهد من هذه الدراسة، كما أن العودة إلى السنة لا تقل أهمية عن العودة إلى القرآن، وألقى الضوء على حركات الإصلاح التي ظهرت بمنأى عن رحاب القرآن الكريم أو تحاول أن تتخطاه، وأشار إلى أن الدراسة لا تهدف إلى فصل الحاضر عن الماضي بل الوصل على أساس من الوعي والتعامل مع التراث مع تخليص الفكر الإسلامي من شوائب كثيرة.

وبين أن اللجوء إلى الشيخ الغزالي لمعالجة هذه القضية «التعامل مع القرآن» لجوء إلى خير كثير، وبيّن بعض الثمار التي نتجت عن هذه الدراسة.

وفي المقدمة ظهر التأثر واضحًا بفكر الشيخ الغزالي وحصاد الكتاب، فبين نعي القرآن على المعرضين عن التأمل والتفكر، ووصف ذلك بالأمية الدينية. لذلك لابد أن نقرر بأن الأزمة أزمة فهم وأزمة تعامل وأزمة أمية عقلية، صرنا إليها بذهاب العلم «مناهج الفهم» و«وسائل المعرفة» ولهذا لا يتأتى أن نقتصر في تعاملنا مع القرآن على أساس من الرقية به أو قراءته على الأموات أو زيارة المقابر.

كما انتقد أساليب حفظ القرآن في العالم الإسلامي، وذكر العلة في كون الحفظ قاصرًا على الكلمات والمخارج والألحان دون المعاني والآثار.

وذكر أن السابقين لم يأتوا بآخر ما في القرآن من أسرار ومن زعم ذلك فقد وهم، وبين أن مجرد التلقي والنقل يحاصر القرآن في بعده الزماني والمكاني والإنساني ويعطل الأوامر الصادرة بالسير والنظر والتأمل والتفكر... إلخ وعاب على أسلوب التقليد الجمعي وذكر نماذج لأناس يرون أن النص إذا خالف فكرهم فقد وجب تأويله.

وأما قضية الإعجاز العلمي في القرآن ففيها رأيان: رأي يرى القول به والدعوة إليه، ورأي يرى عدم الأخذ به لما له من آثار على الدعوة الإسلامية، وقد أماط اللثام عن الحزن الذي يعتريه لأن الحقائق العلمية في القرآن تكتشف على يد غير المسلمين، وبدلًا من أن ينهض المسلمون لاكتشاف السنن الكونية المشار إليها في القرآن اكتفوا بنقلها عن الآخرين دون تفعيل دعوة القرآن إلى اكتشاف الكون من خلال اكتشاف أسراره والسنن الكامنة فيه.

كما أن تناول القرآن بالفهم يفتقر إلى مناهج شتى، لأن لكل علم من العلوم من المناهج ما ليس لغيره، فلا يتأتى توحيد المنهج وإنما الواجب كيف نتعامل مع القرآن على اختلاف مشاربنا وأفكارنا وثقافتنا، وهذا ما أبان وأماط اللثام عنه فضيلة الشيخ محمد الغزالي.

وفي التمهيد: أشار الشيخ الغزالي إلى منزلة القرآن، وبين موقف غير المسلمين منه وقت التنزيل كما بين موقف المسلمين في العصر الحاضر من القرآن وانتقده بشدة لأنه قاصر على التأوه والبكاء بعد السماع دون البحث والدرس والاتباع.

وقد بدأت المدارسة من ص٢٧ بسؤال عن حال المسلمين مع القرآن فقهًا وتدبرًا وتأثرًا وعملًا، وكان الرد مظهرًا الغاية من القراءة، والاعتذار عن الجهل بمعنى كلمة أو جملة، وأما دعوى القراءة بفهم أو بدون فهم فهي عارية عن الصحة تمامًا، ورد ما نسب إلى الإمام أحمد في هذا الأمر.

كما نص على أن الارتفاع إلى مستوى القرآن هو المطلوب وليس النزول بالقرآن إلى مستوى الناس، والدليل على هذا أن الرسول ﷺ كان قرآنًا يمشي على الأرض، وأن العرب بعد القرآن خرجوا من نظام القبلية والاستبداد والصراع إلى - نظام التآخي والتواضع والتآلف - إن الوقوف بالقرآن عند حد تجويد التلاوة قد أضر بواقع المسلمين لأنه دعا إلى اكتشاف سنن الله في النفس والآفاق فلم نستجب، وقد أعمل غيرنا عقله في الكون فمكن له في الوقت الذي ضعفنا فيه نحن للغاية.

ودعا المفكرين والتربويين إلى دراسة ظاهرة حفظ القرآن بدون فهم لمعانيه، وتساءل: هل يكتفي بحفظ قدر مع معناه أم يعول على الحفظ كوسيلة للتواتر ثم يكون المعنى في مرحلة متأخرة، وبين أن أكثر الصحابة ما كانوا يركزون على الحفظ بقدر ما كانوا يركزون على العمل بالقرآن. ومع أن وسائل التسجيل للقرآن قد تعددت وتنوعت إلا أنه لا يتأتى الاستغناء عن تواتر الحفظ لتبقى هذه الخاصية قائمة بالقرآن الكريم ص٣٥.

دور المناهج التراثية في فهم القرآن والتعامل معه.

أشار الشيخ محمد الغزالي إلى مدرسة التفسير بالمأثور ومدرسة الفقه ومدرسة اللغة والمدرسة الفلسفية والمدرسة الصوفية ووجه إليها بعض الثناء كما وجه إليها الكثير من النقد، وعاب على الأثريين بخاصة ذكرهم للأحاديث الضعيفة والروايات الموضوعة، كما رد القول بالنسخ ودعا إلى النظرة الشمولية للنص القرآني وبخاصة الانسجام التام بين الكون والإنسان، بل بين الكون والعقيدة والشريعة والأخلاق.

إن المنهج المطلوب التعامل به هو المنهج الشمولي وليست المناهج المبتسرة فضلًا عما فيها من مخالفات، أو خلل، إن آيات الأحكام أقل الآيات عددًا في القرآن وأكثرها إنتاجًا في الفكر، بينما آيات الكون والإنسان أكثر عددًا وأقل إنتاجًا، وهذا خلل في الرؤية الشمولية.

ومما يؤخذ على المسلمين في تعاملهم مع القرآن ما يلي: -

١ -الحاجة إلى فهم السنن القرآنية وبخاصة: سنن العمران، الاجتماع، الإبادة، قانون السببية، مع ضرورة الانتقال من الإدراك إلى التسخير - ص ٥٣ -.

تصويب مناهج الفكر ووسائل التلقي.

يقترح المؤلف أن «تغيير التعامل مع القرآن يجب أن يبدأ في إصلاح الخلل في مناهج التلقي ووسائط التوصيل وإعادة بناء العقل على منهج فكري واضح نستطيع به تغيير التعامل مع القرآن.

وأشار إلى أن الصحابة قد حولوا النص القرآني إلى واقع عملي وهو ما أكسبهم النصر على أعدائهم. وأما نحن فنمر على الآيات مر الكرام أو نقرأها للتبرك والاستشفاء أو نفتتح به الحفلات والمناسبات.

إن عارًا علينا أن نقف عند حد العلم بالنص دون أن نحوله إلى واقع عملي، فأين أثار آيات التسخير في حياة المسلمين وبخاصة تسخير البر والبحر والشمس والقمر والفلك بل الليل والنهار.

إننا نتعامل مع النصوص من خلال واقع التخلف ص ٥٩. ونطلب من تراثنا ما يزيد التخلف بلّة، كالوقوف بالحديث عن الحديد عند حد السيوف والرماح، والاشتغال بتفسير الطير الأبابيل من خلال فكر الإمام محمد عبده، وذكر القصص للتسلية دون الحرص على الترقي الخلقي والسمو الأدبي، واجتزاء الفقه الإسلامي عند حد العبادات وإقامة الحدود. ص ٦٣، ٦٤.

وفي فترتي الحكم الأموي والعباسي، انفصل الدين عن السياسة طلبًا للسلامة، ونأى الفقهاء بأنفسهم من بطش الولاة، وظهر اتجاهان في التربية، الأول على أساس فقهي جامد واقف عند حد النص وهو اتجاه الفقهاء والثاني اتجاه روحي عاطفي وهو

اتجاه الصوفية وبين الاثنين غاب الحديث عن البعد السياسي في الشريعة الإسلامية.

كما ظهر اتجاه آخر على هامش الاتجاهين السابقين وهو العلوم والمعارف التطبيقية والتي اعتبرت علوم وسائل لا مقاصد ونظر إليها أحيانًا نظرة تحريم وتجريم كعلم الكيمياء. ولهذا كانت على هامش المعرفة أكثر من كونها في جوهر الفكر الإسلامي.

وأما مدلول كلمة فقه فقد وقف عند أمرين:

الدلالة اللغوية: فقه العبادات والمعاملات والأنكحة والحدود والجنايات.

وأما فقه السنن فقد أخرجناه من مراد النص مع أن الله وصف اليهود بعدم الفقه ووصف به العرب ووصف به غيرهما مما يدل على أن الفقه أوسع دلالة من العلم بالأحكام الشرعية العملية

ومما ينبغي الالتزام به أن ننظر إلى القرآن نظرة موضوعية لا نظرة موضعية، فلا يجوز الوقوف عند حد جانب من جوانبه دون سائر الجواب وبخاصة أن نظرة القرآن الشمولية بادية في ثنايا نصوصه، ومن الخطأ أن نجتزئ الآيات لتحقيق الغرض المراد، أو أن ننظر إلى صدر آية أو خاتمتها بعيدًا عن السياق، وقد ضرب كثيرًا من الأمثلة لهذا ص٧٣، ٧٦.

كما بين أن مشاكل الإنسانية تتكرر بصور مختلفة، وعلاجها في ضوء النص القرآني غير متعذر، ومما وردت الإشارة إليه نفي النسخ في القرآن، لأن تعطيل بعض الآيات عن العمل بها يتعارض مع صفات القرآن الواردة فيه، وقد أظهر رأيًا جديدًا في قضية النسخ وإن كان متأثرًا فيه بمن سبقوه ورجح أن النسخ في الإسلام إنما هو لشيء من شرائع السابقين أو استبدال معجزة حسية سابقة بمعجزة عقلية قائمة.

ومن المآخذ على أمة الإسلام إهمالها تناول كثير من العلوم والمعارف التي أشار

إليها القرآن وهي علوم ضرورية لخدمة الدعوة الإسلامية وخدمة الإسلام، مثل علم التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق، فضلًا عن فتح القرآن للنوافذ أمام النظر العقلي.

إن فقه العبادات قد غلب فقه السياسة، وإن فقه العمال غاب عن فقه المسلمين، وإن الأدب قد خرج عن غايته إلى مدح هذا أو ذاك طلبًا لكسب مادي أو لوقاية من أذى وتمنى لو أن المسلمين الأولين بدلًا من أن يترجموا الفلسفة الإغريقية والتي أثرت على فكرنا الإسلامي قد ترجموا الفكر الإسلامي إلى اللغات الأخرى ليتأثر به غير المسلمين كما حدث في أوربا في العصور الوسطى.

وعن التدرج في العودة إلى تطبيق الأحكام القرآنية يرى أن اختيار ما يناسب الغرب في إطار التدرج في الدعوة مطلوب، وضرب مثلًا لمنهج المسيحيين الذين يركزون على التنصير أولًا وترك تحريم تعدد الزوجات وشرب الخمر... إلخ.

ومن رأى المؤلف التركيز على التوحيد وإنسانية الرسول ﷺ كما أننا مطالبون باختيار ما يناسب الغرب من فقهنا الإسلامي، وضرب مثلًا لهذا بحق المرأة في عقد زواجها بنفسها، وحل ما عدا الخمر من المسكرات كما هو مذهب الأحناف، ص٩٨ وجواز قتل المسلم بغير المسلم، أي اختيار ما يتناسب مع الزمان والمكان والأشخاص.

وعن القواعد العامة أشار إلى ورودها بصيغ الإلزام وترك كيفية التطبيق للزمان والمكان والمستجدات، واستشهد لهذا بالشورى والعدل الاجتماعي، وحث على الاجتهاد الجماعي في غير العبادات وأما العبادات فقد ورد فيها ما يكفي من خلال تراثنا.

ومما أشار إليه: العدالة والتعليم.. كقيم إسلامية مع ترك كيفية التطبيق للظروف الآتية.

وعن الاختلاف وهل هو سبب تفريق الأمة وتشيعها إلى ثلاث وسبعين فرقة فإن المؤلف قد أشار إلى احترام أئمة المذاهب لبعضهم ونزولهم على اجتهادات بعضهم وإعلانهم أن الحق مع الجميع ولم يحتكره واحد بعينه، فلا فرقة ولا عصبية.

وأما الخلافات العقدية فكانت سببًا في نشأة المذهبيات والتي أدت إلى الفرقة في كثير من الأحيان وبخاصة إذا تناولت قضايا الإلوهية كمسألة عين الذات وطبيعة الصفات.

وأما الخلافات الفقهية فلا صلة لها بالكفر أو الإيمان، وما وردت الإشارة إليه بحق أهل الكتاب إنما هو في الخلاف العقدي والذي أدى إلى مذاهب تكفر بعضها.

وعن الخلافات السياسية فقد اختلف الصحابة ولم يكفر أحدهم الآخر، وما يحرم منه: إذا خرج شخص على الإمام يريد أن ينتزع منه الحكم بقوة السيف مما يؤدي إلى إراقة الدماء.

وأما الخلافات الحديثية فإنها لا تؤدي إلى الكفر، بل لون من ثراء الفكر، وبخاصة حكم العمل بحديث الآحاد ص١١٣/ ١١٤ و«القول بأن أحاديث الآحاد تبني العقائد وتفيد اليقين قول غير صحيح وما يقوله بعضهم في هذا مرفوض».

وعن دعوى: حكم الإسلام، رأى الإسلام.. في حال الاجتهاد رأي أن عبارة الحل الإسلامي أو التصور الإسلامي خير من القول إنه الإسلام أو الدين الإسلامي..

وأما عن إدراك السنن الإلهية في الأنفس والآفاق وعن عجز المسلمين عن تسخير هذه السنن، فقد أشار إلى سنة التدرج وسنة الأجل والتداول الحضاري وسنن المدافعة وسنة التسخير وسنن الله الأخرى في الأنفس والآفاق والكون،

وأشار إلى شواهد ذلك في القرآن الكريم بشواهد تبلغ حدًا في الكثرة. وتمنى من المسلمين إدراكها والعمل بها.

نصيب الفرد من الخطاب القرآني ص ١٣٤:

أشار إلى أن الخطاب نوعان، نوع يتعلق بالحكام والدولة مثل إقامة الحدود ورعاية الثغور وتنظيم القضاء... إلخ ونوع يتعلق بالأفراد وهو التكاليف الشرعية، ودور الأفراد في النوع الأول هو المساندة وقبول الأوامر وحمل النفس على الالتزام دون الافتئات.

الإعجاز العلمي في القرآن:

خالف المُحاورَ فيما ذهب إليه من كون المستجدات دلائل نبوة وليس إعجازًا فقطع الشيخ الغزالي بأن كشف المستجدات يعد إعجازًا ودعاه بالإعجاز وضرب لهذا مثلين: الأول: حديث القرآن عن السحاب قبل عصر الفضاء، الثاني: حديث القرآن عن أطوار خلق الإنسان قبل التقدم الطبي.

وأما السنة ففيها الكثير من هذا، ولكنه لم يوافق على مسمى الطب الإسلامي أو الطب النبوي. وأما صور الإعجاز الأخرى كالإعجاز العددي «فهو ضرب من السخف يختلف من كاتب لآخر» ص ١٤١.

القرآن والكسب العلمي:

أشار المؤلف إلى ثلاثة أسباب للتخلف العلمي في بلاد الإسلام وهي:

١- طبيعة العرب التي تميل إلى الكلام أكثر من العمل.

٢- انشغال العقل المسلم بالمرويات أكثر من انشغاله بالكونيات.

٣- فساد نظم الحكم.

وفي حديثه عن أن الأزمة أزمة فكر لا أزمة منهج وقيم، بين الأثر الإيجابي للقرآن على العرب وقت التنزيل، وكيف علا بهم الإيمان على حضارة الفرس

والرومان.

وذكر أن من خصائص النص القرآني أنه حمّال أوجه، وهو ما يكسبه الصلاحية للإصلاح في كل زمان ومكان، والعيب ليس في القرآن - وحاشاه - بل العيب في منهج التعامل معه، فمن الناس من يقرأه بتفكر وتدبر ومن الناس - وهم الأغلب - من يطرب لسماعه وانتهى الأمر عند حد ألحانه وموسيقاه وما كان المسلمون هكذا في صدر الإسلام.

وأما المفكرون أصحاب المنهج فقد سقطت عندهم كل الضمانات ومات أكثرهم في السجن أو حبس في بيته وذكر لهذا شواهد عدة من الماضي والحاضر، بدءًا من ابن حزم واتباعًا بالمتنبي وختامًا بضحايا ثورة ١٩٥٢م.

ويرى أن التغيير الثقافي هو البداية للتغيير السياسي، أخذًا من الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وحديث: «**أينما تكونوا يولى عليكم**» وأن التركيز على الثقافة الهامشية - علم تشريح الوضوء -والذي يستغرق تناوله ثلاثة أشهر - أضر كثيرًا بالثقافة الهادفة كدراسة تاريخ عاد وثمود وحضارتهما وسبب سقوط هذه الحضارات، كذلك النظر في الآيات الكونية.

وعن عصمة عموم الأمة يقرر الشيخ الغزالي هذا، ويرى أن بالأمة من اليقظة ما يجعلها تفرق بين أمراء السوء وعلماء الشريعة وخير شاهد على هذا يوم الجنازة لكل منهم.

وأشاد بفهم ابن تيمية للنص القرآني وامتدح قدرته على الاستنباط من النص بما لم يسبق إليه وضرب لهذا أمثلة شتى منها نظرته إلى مقومات الرياسة وأمر الحاكمية والطلاق الثلاث وإعادة توزيع المال والمحافظة على الأسرة، فضلًا عن كتاباته في السياسة الشرعية.

وابن القيم تحدث عن السلع وتسعير المواهب وكوادر العمل..

ومع مدحه لابن تيمية وابن القيم فإنه أخذ عليهما إنكار المجاز في القرآن وهو من الحقائق، والميل إلى التجسيد، وهو مصادم لنص القرآن الآمر بالتنزيه.

ودعا الشيخ الغزالي إلى ضرورة التعامل مع مصادر الإسلام وعدم الاكتفاء بالتراث عن مصادره وضرب أمثلة لهذا بأن دراسة الفقه الإسلامي تعتمد على المتون وعلى شروح المتون، أما التعامل مع القرآن والسنة مباشرة فغير موجود في مناهج التعليم، ولهذا لا يتأتى أن يكون التراث مانعًا دون الاتصال بالنص القرآني أو الحديث النبوي...

وحول تأسيس منهج العودة إلى القرآن قال:

إن إقدام غير المتخصصين على القرآن والسنة يشكل خطرًا على المنتج الفكري، فضلًا عن قيام بعض الصبية بسب الأئمة وقدح التاريخ ورد بعض الأحاديث والانتقاء في التعامل مع التراث... إلخ.

وضرب مثلًا للانتقاء بالتركيز على طول ثياب عُمَر وقِصَره، مع تناسي فقه عمر، ورد على المتهمين لعمر بأنه عطل النص «سهم المؤلفة قلوبهم» وأسقط الحد «عام الرمادة» وصحح المفاهيم.

وحول إجابته عن كيفية التعامل مع القرآن ليكون مصدرًا للعلوم الاجتماعية؟ قال: على الجامعات الإسلامية القيام بهذا وعليها أن تختار أناسًا درسوا علوم الغرب مع علمهم بالتراث الإسلامي، ويساندهم أناس من علماء الدين الإسلامي كفريق عمل ومن ثم فالكل يمكن أن يطلعوا لنا بعدة علوم أخرى مرة واحدة: علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم التاريخ ص ١٦٩ - ١٧١.

وأشار إلى أن الوراثة لها دورها وأثرها وأهم من هذا البيئة التي ينشأ فيها الإنسان والأحفاد فروع الآباء ويتأثرون بهم من خلال الجينات الوراثية... وأشار

إلى أثر البيئة في الاستبداد السياسي ويمثله فرعون والاستبداد الاقتصادي ويمثله قارون وعاقبة كل منهما.

وقد استنبط من قصة موسى وفرعون في القرآن ما لم يستنبطه من سبقوه،كما عالج الجانب الاجتماعي وتطرق إلى زواج موسى من ابنة شعيب وبين عاقبة الاستبداد وأثر الشعوب في التغيير.

وعندما تحدث عن العرب كأمة حاملة رسالة بين خصائص العرب قبل الإسلام مثل الحرية، العصبية القبلية، القيم النبيلة كتحريم الكذب والزنا والخيانة، والتحلي بالشجاعة والنجدة، فضلًا عن وجود الحنفاء في الجانب العقدي والعقلاء في الجانب الاجتماعي ولهذا عقدوا حلف الفضول، ومع هذا ارتقى بهم الإسلام مرتقى ما كان لهم أن يبلغوه إلا بالإسلام.

وعن لغة القرآن أشار إلى أن اللغات الحديثة لم تكن موجودة وقت التنزيل مثل: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، كما أن اليونانية لم تحظ بما حظيت به العربية، وقد سمت لغة العرب إلى أسمى مراتبها في لسان قريش وهو ما جعل كُتَّاب الوحي يكتبون المصحف بلسان قريش، ولا يمكن إلا أن يكون القرآن بلغة قريش ولا يتأتى ترجمته إلى اللغات الأخرى مهما كانت دقة الترجمة، ولا يحول ذلك دون عالمية الإسلام فالعبرة بالمعاني والأهداف لا بالمباني مع الاختلاف، وبخاصة أن للغة العرب من الخصائص ما لا يمكن التعبير عنها حال الترجمة وهو ما يعرف بعلم البيان وعلم البديع، وبهذا نقول: معنى هذه الآية ولا نقول عند الترجمة هذه الآية إذا عبر عنها بغير نص القرآن العربي..

إن العناية باللغة العربية ضرورة دينية، وإن الجهود الغربية تبذل لإضعاف اللغة العربية أو إقصائها وبخاصة من قبل الاستعمار الغربي، كما وجه إليها الكثير من التهم كالجمود والعجز... إلخ. وهذا باطل كله لأن النحت والاشتقاق كفيلان

باستيعاب كل جديد.

وعن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم امتدح الشيخ الغزالي هذا اللون ودعا إليه وبخاصة أنه يفتح آفاقًا جديدة لم يسبق إليها المفسرون القدامى.

وأما عن التفسير بالمأثور فقد انتقده في بعض جوانبه وامتدحه في جوانب أخرى، ومن جوانب النقد أنه يعتمد على الأحاديث الضعيفة ويجمع بين المتناقضات فضلًا عن ذكر بعض الإسفافات فيه مثل قصة الغرانيق وزينب بنت جحش، ومن أن التفسير بالرأي المنهي عنه هو التفسير بالهوى والخارج عن قواعد وضوابط التفسير ونص على أن تفسير الإمام محمد عبده ومن بعده هو إلى الرأي أقرب منه إلى الأثر وله من المزايا ما ليس للتفسير بالمأثور، وقد وضع المُحاوِرَ مع الشيخ ستة ضوابط للتفسير بالرأي ص: ١٩٧.

وحول أمية الأمة وأمية الشريعة، انتقد الشيخ الغزالي دعوى أمية الأمة وبين أنها فترة زمنية مؤقتة وأن وسم الأمة بهذه السمة كان وصفًا للواقع لا لما ينبغي أن تؤول إليه الأمور فلم يرد نص يوجب أمية الأمة بل وردت نصوص توجب وتفرض التعليم، فالقرآن نفسه علم والشريعة علم والأخلاق علم «فأمة تستقبل القرآن لابد أن تكون أميتها قد زالت بهذا القرآن نفسه.

القرآن والزمن. أشار الشيخ الغزالي إلى قيمة التفسير العلمي المنضبط، كما نص على تجاوز النص القرآني حد الزمن الدنيوي لأنه سيقرأ في الجنة كذلك، ومضمون القرآن لا يتعارض مع المنتج العلمي في مشارق الأرض ومغاربها، وبخاصة أنه الكتاب الوحيد الذي أثر في الزمن ولم يؤثر فيه الزمن، وأن الكتب المنسوبة إلى الله – غير القرآن – أثر فيها الزمن ولم تؤثر فيه، وقصص الأنبياء في التوراة خير شاهد على هذا.

وإذا كان الصحابة قد توفر لهم من الصفات والخصائص ما لم يتوفر لغيرهم فإن التابعين وتابعي التابعين والذين اتبعوهم بإحسان لم يحرموا هذا الخير، وعند السابقين من فهم القرآن في العقيدة والشريعة والأخلاق ما ليس عندنا على سبيل الابتداء بل نحن عالة عليهم فيه نعود فيه إلى الماضي «عكس المعارف العلمية الأخرى، فقد تكون الصحة أكثر كلما اقتربنا من المستقبل حيث يصوب العلم زلته التاريخية» .

ولم يرد نص في القرآن أو السنة يحرم اللاحقين من رزق يسوقه الله إليهم من خلال الكتاب والسنة بل إن السنة قد نصت على حامل فقه غير فقيه وحامل فقه إلى من هو أفقه منه..

وعن القرآن والعلم نص على عدم التعارض وأشار إلى أمر عجيب، فالحق عندما ذكر بركته واستحقاقه للتعظيم نص مرة على نزول القرآن (الفرقان) وأخرى على خلق الكون (المُلك)، وحين ذكر استحقاقه للحمد نص مرة على نزول القرآن (الكهف) ومرة على خلق السموات والأرض (الأنعام).

والغاية من العلم في الإسلام هي الهداية والقيم والسعادة الإنسانية المنضبطة بضوابط الشرع عكس العلم على أسس مادية، فلا قيم ولا أخلاق بل انحراف وانجراف.

وعن العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين لا يرى الشيخ الغزالي مانعًا من نقل ما عند الآخرين من معارف وتجارب لم تصل إليها يد المسلمين، وبخاصة أنها نشأت أساسًا في ديار الإسلام.

وضرب مثلًا لهذا بالشورى في سقيفة بني ساعدة وما آل إليه أمرها - عند التطبيق - في الغرب كما أن العلم بما عند الآخرين يمكنا من دعوتهم بعد معرفة عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم - وهي ضرورات لابد منها لتبليغ دعوة الإسلام.

وفي نهاية الكتاب أشار إلى أن كل الثورات والتغييرات تعتمد أساسًا على فكرة ورصيد معرفي وغاية وما لم يكن الأمر كذلك فلن يكون النجاح واستشهد لهذا بما كان من أمر الثورة الفرنسية والشيوعية... إلخ، وأما الحركة الغوغائية فإنها تنجح على عجل وتسقط سريعًا في وجل ومن أوضح الأمثلة على هذا ما كان من أمر التتار...

إن دستور المسلمين باق وهو القرآن وإنه المنطلق والوسيلة والغاية، فهل تم العودة إليه على أساس من التطبيق العملي لا التبرك النظري، ومن الفكر والتدبر والاستنباط لا الترنم والتلحين والاتجار، «ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبًا» والحمد لله رب العالمين.

حصاد هذا العمل وثماره.

لا ينكر فضل الشيخ محمد الغزالي في ميدان تحرير العقل وتنوير الفكر إلا جاحد، والشيخ رحمه الله لم يسلك مسلك أهل السنة «الأشاعرة» في كل حال من حيث قبول النص والتفويض إن تعذر الإدراك ومحاولة التوفيق، كما لم يسلك مسلك المعتزلة في تقديم العقل على النص فيرد كل ما خالف حكم العقل، وهو بين هذا وذاك يعمل العقل ويحترم النص ويرد بعض النصوص التي يتعذر قبولها كما تراءى له عقلًا.

ومما يؤخذ على فكره في هذا الكتاب بخاصة ما يلي.

١- التكرار لكثير من القضايا والتي ذكرت أكثر من مرة.

٢- اتهام كثير من المسلمين بالجهل بالخطاب القرآني.

٣- تعميم حركة النقد لكافة الاتجاهات الفكرية الإسلامية فلم يسلم من نقده مفسرو القرآن ولا شُرَّاح السنة ولا فقهاء المذاهب ولا أرباب التصوف ولا علماء اللغة.

٤- في ثنايا الكتاب ما يشير إلى ضرورة نقد السنة وبخاصة ما ورد في الصحيحين وهو ما يشوش على العامة علومهم ومعارفهم.

٥- اتهم أئمة المذاهب الأربعة بأنهم تبحروا في فقه العبادات دون الفقه السياسي حتى «لا يصطدموا بالنظام القائم... واكتفى الأئمة بأنهم قبلوا الأمر الواقع..» ونحن نعلم أن الأئمة الأربعة قد عارضوا أمراء عصرهم وأوذى بعضهم بسبب معارضته.

٦- اتهم الحكام بأنهم حالوا دون الفقه السياسي واكتفوا من العلماء بفقه المسكنات ونص بما يوهم جبن العلماء عندما ضرب المثل بالحسن البصري وقد قيل له: لص مأخوذ إلى الحاكم قال: سبحان الله، سارق السر يسعى به إلى سارق العلن... لكن هل يستطيع أن يتحول إلى ثائر.. ؟ ص ٦٦.

٧- ادعى أن الغش قد أصاب الثقافة الإسلامية وقد «وقع أولًا في الفقه نفسه فانحسر بعيدًا عن فقه العمل وفقه العمال وفقه الدولة انفصل وذهب وتوسع في العبادات بطريقة تكاد تكون مضحكة.. لأن الفقهاء يريدون ملء الفراغ» ص ٦٧.

٨- ادعى أن سورة يوسف ليس لها سبب نزول وهذا تضييق لمعنى سبب النزول لأن كل كتب التفسير ذكرت أسبابًا لنزول سورة يوسف ص٧٨.

٩- في حديثه عن الدعوة في الغرب ركز على الدعوة إلى التوحيد ضد التثليث وإلى نبوة محمد ضد دعوى تكذيبه، والأولى بالصواب أن نبدأ بالجانب الإنساني في الإسلام والتفسير العلمي للنص القرآني والحديث النبوي في الكونيات والإنسانيات فضلًا عن العلاقات الاجتماعية.

١٠- فسر بعض آي القرآن بما يتعارض مع جمهور المفسرين كما خالف السياق في تفسيره هذا، كما في ص ١٢٥.

١١- وصف التفكير الفقهي بأنه «الذي حبس العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر والثالث عشر والربع عشر، حبسه في كيفيات الوضوء وفي المسجد وفي بعض الأسواق التي تبيع الأنعام وبعض صور البيع الساذجة والنخاسة...» ص ١٦٣.

١٢- بالكتاب خطآن: أحدهما ضار بالمعنى وهو العنوان الوارد ص ١٦٤- الاكتفاء بالتراث عن الكتابة والسنة والصواب» الكتاب والسنة، : والثاني ص ١٨٤ - طرفة بن العبد ولد نحو عام ٨٦هـ.. وقتل عام ٦٠ قبل الهجرة، والصواب: ولد قبل عام ٨٦هـ وقتل عام ٦٠قبل الهجرة.

ومع هذا فالكتاب فيه جهد مشكور وهو للصفوة أقرب منه للعامة والله الموفق.

*****

obeikan.com